الجرح الخفي

لكارولي كسفالودي

[كارولي كسفالودي واخوهُ الكسندر من حملة لواء الادب المجريّ [الهنغاريّ] في اواخر القرن الماضي . وقد اشتهر كارولي على الخصوص بتأليف الروايات التمثيلية. ولكنهُ في حياته القصيرة المحفوفة بالمخاطر ، ضرب بسهم كبير في وضع الاقاصيص الغريبة . وكان ، كما وصفهُ ناقدٌ مجريٌّ : — « عبْرَ اسفارٍ مغطوراً على الإبداع في اودية الخيال بظرفٍ وكياسةٍ وحسن تناول » . ومع كونهِ من كتّاب الطبقة العالية استطاع ان يبثّ في اقاصيصهِ روح الحقيقة او الامر الواقع فتبدو كأنها مكتوبة للجيل الحاضر . وقصة « الجرح الخفيّ » تستوفي اشهر الشروط التي يلحُّ اشدّ النقّاد تدقيقاً في وجوب مراعاتها عند تأليف الاقصوصة. وتتضمن علاوة على ذلك صفة الحيوية التي لا يعبّر عنها ولا بدّ منها في كل فنٍّ بغضّ النظر عن القواعد والآراء]

القصة

بكّر رجل ذات يوم في المجيء الى جراحيٍّ مشهور قبل استيقاظهِ من نومهِ . ووقف في باب بيتهِ وكلّم الخادم لاحًّا في طلب إيقاظ سيدهِ لانهُ قادم لامرٍ ذي شأنٍ يستدعي أقصى ما يستطاع من الإسراع في العمل . فلما افاق الجراحيّ وعلم بما كان هبّ من فورهِ وليس [illegible] الخادم بإدخال الزائر

وكان على وجه هذا الزائر لوائح الانباء الى نخبة رجال الهيئة الاجتماعية . واصفرار وجههِ وهياج اعصابهِ دلاّ على معاناتهِ لألمٍ جسديٍّ شديد . وقد عصب يدهُ اليمنى وشدها بمعلاقٍ الى صدرهِ ومع شدة ضبطهِ لملامحهِ وصبرهِ على ما يساورهُ من الوجع كانت تفلتان من وقت الى آخر بانينٍ عميقٍ يتمّ على لذع الالم الفادح

فلما استقبلهُ الجراحيّ هشّ بهِ وبشّ وقال لهُ :

— تفضّل اجلس وقل لي ما خطبك

— لم اذق لذة النوم منذ اسبوع . وفي يدي اليمنى وجع لا ادري سببهُ . فقد يكون ناشئاً عن السرطان او عن داء آخر عضال . وقد كان بادئ ذي بدء خفيف

الوطأة سهل الاحتمال . واخيراً اشتدّ لفحهُ ولذعهُ حتى اصبح لا يطاق . وهو آخذٌ كل ساعة في الاشتداد والازدياد وبالغٌ في تعذيبي وتبريحه بي حدًّا يتعذر احتمالهُ . فجئتُ الى المدينة لكي استشيرك فيه واستعينك على تدارك خطئي وتلافيه . واذا اضطررتُ الى مكابدته ساعة اخرى كان الجنون ايسر ما اصاب به وانتهي اليه . فارجو ان تعالجهُ بكاوٍ او ان تستأصلهُ او تفعل شيئاً آخر يريحني منهُ

فسكّن الجراحيُّ اضطرابهُ وقال لهُ ان الخطب سهل وقد لا تمسّ الحاجة الى اجراء عملية جراحية . فاعترضهُ الرجل بقوله :

— لا لا . لا بدّ من العملية . وانما جئت اليك لاستئصال العضو المصاب والاستراحة من هذا العذاب

ثم خلّص يدهُ من المعلاق ورفعها متألماً واستتلى كلامهُ :

— لا يأخذنك اقلُّ عجب اذا لم ترَ جرحاً ظاهراً في يدي . فان حالتي هذه غريبة في بابها وخارجة عن قياس الحوادث المألوفة

فقال لهُ الجراحيُّ انهُ ليس من عادته ان يعجب مما هو غريب ونادر . وبعدما امعن نظرهُ في اليد لم يسعهُ اخفاء دهشته وتعجبه لانهُ لم يجد فيها اقلّ حاجة الى طبٍّ او علاج ولم يكن بينها وبين اليد الاخرى اقلّ فرق في شيء على الاطلاق . ومع ذلك كانت معاناة صاحبها لاشدّ الآلام ظاهرة باجلى بيان . فسألهُ الجراحيُّ : —

— أين موضع الالم ؟

فمدّ الرجل يدهُ نحو الجراحيّ واشار الى بقعة صغيرة مستديرة بين الوريدَين الكبيرين . ولكنهُ ، لما جسّها الجراحيّ بطرف بنانه وجدها لا مزيد عليه من الرقة والاحتراس ، انتزعها منهُ ونابت دموعهُ عن لسانه ببيان الالم الشديد الذي شعر به من هذه اللمسة الخفيفة . فقال الجراحيُّ :

— ان هذا من اغرب الامور . لاني لا ارى في يدك شيئاً يدل على ما تشكوهُ

— ولا انا . لكنَّ الالم يبلوني ما لا يطاق من الفذع . واني افضل الموت عليه

فتناول الجراحيّ المجهر (المكرسكوب) وفحص به اليد كلها فحصاً مدققاً وقاس درجة حرارة الرجل ثم هزّ رأسهُ وقال :

— ان الجلد والشرايين في احسن حالة صحية . ولا اثر للالتهاب او الورم . واليد كلها سالمة من الاعتلال

— ولكن الاحمرار ظاهر في البقعة

— أين ؟

فرسم الرجل على ظاهر يده دائرة صغيرة في حجم الملّيم وقال :

— هنا

واذ ذاك رفع الطبيب نظرهُ اليهِ وقد حدثتهُ نفسهُ بانهُ يعالج رجلاً مصاباً بعقلهِ لا بيدهِ . فقال لهُ :

— يجب ان تقيم بضعة ايام في المدينة وسابذل جهدي في إسعافك بما تمسّ الحاجة اليهِ من العلاج

— ليس في وسعي ان انتظر دقيقة واحدة ولا يحزنّ بالك يا حضرة الطبيب اني مأخوذ بعارض جنون او وهم . ولكنّ هذا الجرح الخفيّ يذيقني امرّ الالم . فاروم ان تجرّد مبضعك وتسلّطهُ على هذه البقعة ليقطع اللحم حتى العظم

— لستُ بفاعل هذا

— ولماذا ؟

— لانهُ ليس في يدك اقلُّ شيء يدعو اليهِ وهي مثل يدي في الصحة والسلامة

فاخرج الرجل من جيبهِ ورقة نقود بقيمة ألف فلورين ووضعها على المائدة وقال :

— اظنك تخالني مجنوناً او مخادعاً . ولكنني لستُ كذلك . واني اكلّمك بكمال التعقل والجدّ والاهتمام. والامر جلل وذو بال . وها انا مستعدّ لدفع هذا المبلغ للتخلص منهُ . فاوجو ان تعجل في اجراء العملية

— لستُ بمستعمل مبضعي في عضو صحيح سليم ولو أُعطيت مال قارون

ولماذا ؟

— لانهُ ينافي سنة ضميري ويخالف آداب صناعتي ويدعو الناس كافة الى الحكم عليك بالعته والبله وعليّ بمرة الانتفاع بضعفك وجهلك او على الاقل بجهلي تشخيص جرح غير موجود

— اذن اتولى انا بنفسي اجراء هذه العملية وان تكن يدي اليسرى لا تطاوعني كما اريد . وغاية ما ارجوهُ ان تعنى بمعالجة الجرح بعد فراغي من شقهِ

فدهش الجراحيّ اذ رآهُ جادًّا كلَّ الجدّ فيما قالهُ وقد خلع سترتهُ وحسر كمّ

قميصه واخرج سكيناً من جيبه واحدث به جرحاً عميقاً في يده قبلما تمكن الجراحي من منعه عنهُ . فاوجس خوفاً من قطعه وريداً او شرياناً وصاح به من فوره : —

— قف . قف . اذا كنت مصرًّا على اجراء العملية فانا افعلها

ولما أكمل استعدادهُ لاجرائها نصح للرجل ان يحوّل وجههُ الى الجهة المقابلة لان من عادة الناس في الغالب ان يزعجوا من رؤية دمائهم نازفة فقال لهُ :

— لا حاجة الى ذلك . وعليَّ ان اوجه نظري اليك لاحدد لك محلّ القطع

وتحمّل الم العملية بجلد منقطع النظير غير مبدٍ شيئاً من علامات التوجع ولا ظهر على يدهِ اثر الارتعاد والارتعاش . ولما فرغ الجراحيّ من قطع البقعة المحدودة تنفس الرجل الصعداء كمن يلقي عن كاهله عبئاً ثقيل الحمل . وسألهُ الجراحيّ :

— هل تشعر الآن بشيء من الالم ؟ فاجابهُ باسماً متهللاً :

— كلاَّ يا سيدي . وكأني بالالم قد استؤصلت شأفتهُ او أقتلع من جذورهِ . وكأن الهياج الذي احدثهُ القطع نسيم عليل يلين يهبُّ على الجسوم بعد لفح السموم . وارجو ان تطلق للدم عنان الترف لازداد ارتياحاً وانتعاشاً

وبعد ما فرغ الجراح من لأم جرحهِ وضمدهِ لاحت على محياهُ علامات الاغتباط والاطمئنان وشكر للطبيب عنايتهُ واهتمامهُ وانطلق بعدما اخبرهُ باسم الفندق المقيم فيهِ حيث عادهُ يوماً بعد يوم وسنحت لهُ فرصة سبرغورهِ ومعرفة ما خفي عليهِ من احوالهِ فعظم شأنهُ في عينيهِ لانهُ رآهُ من صفوة اهل الريف وذوي الوجاهة والكرامة وعلى جانب عظيم من تثقيف العقل وتهذيب النفس ومن اسرة عريقة في الحسب والنسب . وبعدما التأم جرحه على الوجه المرغوم رجع الى بلدهِ

لكنه بعد ثلثة اسابيع جاء الى الجراحيّ ويدهُ معصوبة ومشدودة الى صدرهِ وهو يشكو عذاباً صعّداً من ألم مبرّح في يدهِ — في البقعة نفسها حيث تألم قبل اجراء العملية الجراحية . وكان وجهه اصفر كالشمع والعرق البارد ينفطر من جبهتهِ . فجلس على الكرسيّ جلوس المعي المتوك ومد يدهُ اليمنى الى الطبيب . فصرخ هذا مأخوذاً بحيرة ودهشة لا مزيد عليهما :

— ماذا اعتراك ؟ فاجابهُ بصوت يقطعهُ الانين :

— يظهر انك لم تبلغ في القطع الى العمق المطلوب . ولذلك لم يلبث الالم ان

أعاد كرّتهُ عليّ وهو بالغ في الاشتداد مبلغاً يشب عن طوق الوصف . فارجو ان تعيد اجراء العملية بلا اقل ابطاء

ففحص الجراحيّ الموضع الذي اجرى العملية فيه فاذا بالجرح ملتئم كل الالتئام وهو منطوٍ بجلد جديد والاوردة كلها في انتظام تام والنبض جارٍ في حركتهِ على ما يرام وليس للحمّى من اثر . ومع ذلك كان الرجل مصابا برعشة ترجّ اعضاءهُ رجًّا . وتلك حالة لم يسبق للجراحيّ ولا لغيرهِ من الاطباء أن شاهدوا لها مثيلاً على الإطلاق. ولم يكن ثمّ مندوحة عن إعادة العملية. فتمّت كما في المرة الاولى وانقطع الالم وشعر صاحبنا براحة التخلص منهُ ولكنهُ لم يتسم هذه المرة. وعندما شكر الطبيب وودّعهُ كان وجههُ منشيًّا بسحابة الحزن والكآبة . وقال وهو منطلق :

— لا تعجب ان رأيتني راجعاً اليك بعد شهر

— خلِّ عنك الاهتمام بهذا الامر

— انهُ محقق عندي كتحقيق وجود الله في السماء . قالى اللقاء

وعرض الجراحيّ هذه الحادثة على كثيرين من زملائهِ فبحثوا فيها بحثاً مطولاً ولكنهم انتهوا منهُ كما ابتدأوا من غير ان يظفروا للغزها بحلٍّ واضح صريح

***

وانقضى شهر على ذهاب الرجل ولم يعد . ثم مرت بضعة اسابيع . وعوضاً عن مجيئهِ بنفسهِ جاء منهُ كتاب الى الجراحي هذه ترجمتهُ :

«عزيزي الدكتور : لا اروم ان تبقى في اقل ريب من جهة جهد البلاء الذي أعانيهِ ولا يهمني ان يظل سرّه في صدري ويدفن في قبري . واود ان اطلعك على تاريخ دائي الدفين فقد عاودني الآن ثلث مرات ولست ملازماً على مواصلة الجهاد والكفاح كلما انتقض الجرح بعد الالتئام وجرعني غصص الاوجاع والآلام . وقد تمكنت الآن من كتابة هذه الرسالة اليك بان وضعت على محلّ الالم جذوة نار شديدة الاستعار من باب ازالة المرّ بالامرّ او عملاً بالمثل القائل « ان الحديد بالحديد يفلح »

« كنتُ الى عهد غير بعيد راتعاً في ظلّ السعادة وناعماً برغد العيش وصفاء البال لا يعوزني شيء مما تطمح اليهِ نفس رجل في سنّ الخامسة والثلثين . ومنذ سنة عمد عقتضى سنة الزواج ، بعد ما اطعتُ داعي العشق والغرام فاقترنت بسيدة كانت آية في

الحسن والجمال ، مستوفية قسطها من التثقيف والتهذيب . وكانت قبل اقتراني بها خليلة لسيدة نبيلة (كونتس) مجاورة لي . فأشرب قلبها محبتي والتعلق بي . وقضينا ستة الاشهر الاولى في غبطة ومسرة كانتا كلَّ يوم في نمو وازدياد . وكانت كلما ذهبتُ الى المدينة لقضاء بعض الحاجات ، تقطع مسافة طويلة ، ماشيةً على قدميها ، لتلاقيني في اثناء رجوعي . وكانت لي اطوع من بناني ، تأتمر بأمري وتنتهي بنهيي بلا اعتراض ولا سؤال ، دائبةً على الدوام في عمل كل ما يرضيني ويسرني

« وفي إبان هذه السعادة التامة خطر لي — ولا اعلم كيف خطر لي — ان سلوكها هذا كلهُ تكلُّف وتصنُّع . وكثيراً ما يبلغ من شدة حماقة الانسان ان يجلب على نفسه الكد والشقاء في اثناء تمتعه بكمال الصفاء والهناء . فقد كان عندها مائدة صغيرة للخياطة ولها درج كانت دائماً تحرص اشدَّ الحرص على حفظه مقفلاً . فلم تتركهُ قطُّ مفتوحاً ولا ابقت مفتاحهُ فيه . وهذا الامر رابني وهاج فيَّ الغيظ والحنق . وجدَّ بي اهتمام شديد لمعرفة السرّ الذي حاولت كتمانهُ عني . وأخذتني غيرة سلبتني عقلي ولم تبقِ على رشادي . فشككتُ في صدق نظراتها الخالصة وقبلاتها الحارَّة وكلماتها الحلوة وعددتُ هذه كلها قناعاً تسدلهُ على ما وراءهُ من ضروب المكر والخداع

« وفي ذات يوم جاءت السيدة النبيلة تدعوها الى زيارتها وقضاء النهار في قصرها فوعدتها اني اذهب اليها بعد الظهر لاعود بها . وما كادت المركبة تخرج بها من فناء داري حتى عدت الى الدرج وشرعت افتحهُ . واخيراً تمكنت من فتحه باستعمال واحد من المفاتيح الكثيرة التي عندي . وبين الاشياء المختفية التي فيه عثرت على رزمة رسائل عشق وغرام مربوطة بسلك بنفسجي ! !

« فلم اتمهل برهة افكر في الامر لارى هل يسوغ لي الاطلاع على اسرار زوجتي في ايام حداثتها ! واستكدَّني عاملٌ خفيٌّ في التحري لعلَّ هذه الرسائل تتعلق بزوجتي بعد اقترانها بي . فنشرتها وتلوتها الواحدة بعد الاخرى . وكانت اتمَّ بداءة في حياتي كلها ! لاني وقفتُ على افظع خيانة اقترفتها امرأة ضدَّ رجل . وكان كاتب هذه الرسائل من أعزّ اصدقائي الاصفياء ! أما نسق الكتابة واسلوب الكلام ومتزاه ومعناهُ فما لا يطاوعني القلم على ذكره ولو بأخفى وجوه التلميح . وليس في طاقتي ان اشير الى شدة إلحاحه عليها في كتمان الامر عني ولا الى تعريضه بي وازدرائه لي . وكلُّ

منها مكتوبة بعد زواجها . فقد زعمتُ اني كنتُ سعيداً والآن تجرَّعتُ دفعة كأس شقاءٍ حتى الثمالة . ولما فرغت من تلاوتها طويتها وارجعتها الى الدرج وأقفلتهُ

« وكنتُ قد توقَّعتُ انها تعود في المساء وحدها اذا تأخرتُ عن الذهاب اليها وهكذا كان . ولما بلغت بها المركبة الى بوابة بيتي قفزت منها خارجة للقائي وعانقتني وأسهبت في تقبيلي مبالغة في اظهار شوقها وولوعها . أما انا فكظمت غيظي ولم أبح بشيء مما في صدري . وتناولنا العشاء معاً وقضينا جانباً من الوقت في السمر كعادتي العادة . وعندما جاء وقت النوم دخل كلٌّ منا مخدعهُ . وكنت قد عقدت عزمي على امر بإصرار مجنونٍ مسلوب الرشاد وعادٍ منيطٍ بحنق ما بعده من عناد . ولما انتصف الليل طرقت مخدعها متسللاً ونظرت اليها وهي راقدة في حضن الدعة والاطمئنان ووجهها طافح بنور البراءة من كل منقصة ومذمَّة . فقلت في نفسي لله من رياء الطبيعة ونفاقها ! فقد اخفت خطيئة الخيانة وراء هذا الوجه الصبيح الصريح . وكان سمّ السخط والضغينة وحب الانتقام قد فعل بي فعله وتمكن من جوارحي كلها . فقبضت يدي اليمنى على عنقها وضغطتهُ بكل قوتي . ففتحت عينيها ونظرت اليَّ حائرة مشدوهة . ثم أغمضتهما واسلمت الروح . لم تحرِّك اقلَّ ساكن في الدفاع عن نفسها . بل ماتت بهدوء وسكون كأنها في حلم . لم تفه بكلمة تبرُّم او تظلم من اغتيالي لها . ولكن قطرة دم نضت من شفتيها وسقطت على يدي — في البقعة التي عرفتها . ولم انتبه لها إلاَّ في الصباح . وكان الاحتفال بدفنها بسيطاً الى الغاية . فقد كنت مقيماً في ضيعة حيث لا مراقبة صحية من قبل الحكومة وليس من يداخلهُ اقل ريب في الامر لان المرأة كانت زوجتي ولم يكن لها اقرباء ولا اصدقاء فلم اضطرّ الى الاجابة عن اسئلة من هذا القبيل . ولزيادة الاحتراس اذعت نبأها بعد الفراغ من دفنها لأكفي مؤونة الغمّ والازعاج من بعض الفضوليين

« لم اشعر حينئذٍ باقلّ وخزٍ من قبل تبكيت الضمير . نعم اني قسوت عليها قسوة وحشية ولكنها استحقت ذلك جزاء خيانتها . لم ابغضها . ولم يصعب عليَّ نسيانها . وما من قاتل اقدم على ارتكاب جريمة القتل وكان اقسى مني قلباً واقل شعوراً !

« وبعد الفراغ من دفنها رجعت الى البيت واذا بالسيدة النبيلة قادمة في مركبتها وهي في اشدّ حالات الدهش والذهول وتوشك ان تغيب عن الصواب من جراء مفاجأة

التي لها على غير توقع ولا انتظار . وعندما كلمتني محاولة تعزيتي لم افقه لكلامها معنى ولا اعرتهُ شيئاً من الاهتمام لاني بالحقيقة لم أكن في حاجة الى التعزية . ثم تناولت يدي برفق ولطف وقالت انها تودُّ ان تفضي اليَّ بسرٍّ وترجو ان احرص على كتمانهِ ولا احاول الانتفاع بهِ . وهو انها كانت قد ائتمنت زوجتي على رزمة رسائل لم يمكنها حفظها في بيتها . والآن ترجو ان اردّها اليها . فشعرت بقشعريرة رعب وذعر انتفضت بها « كما انتفض العصفور بلله القطر » . لكنني تكلفت الجلد وسألتها عن محتويات هذه الرسائل . فراعها هذا السؤال واجابت عنهُ بقولها :

« كانت زوجتك اوفى امرأة عرفتها في حياتي . فلم تسألني قط عن موضوع هذه الرسائل وزادت على ذلك وعدها لي بعدم محاولتها الاطلاع عليها

— هل تعلمين اين وضعت رسائلك ؟

— اقفلت عليها في درج مائدة الخياطة وهي مربوطة بسلك بفستاني . فلا يصعب عليك ان تجدها . وعددها ثلثون

فذهبت بها إلى الغرفة حيث مائدة الخياطة . وفتحت الدرج واخرجت الرزمة منه وناولتها اياها قائلاً :

« هل هذه رسائلك ؟ »

« فاخذتها بلهفة لا مزيد عليها وانا مطرق لا اجسر ان ارفع عيني اليها مخافة ان ترى فيهما ما يطاهما على سر قلبي واضطرابي . [illegible] ذهبت

« وبعد اسبوع من وفاة زوجتي هرج [illegible] حيث سقطت قطرة الدم في تلك الليلة الهائلة . وكان من ذلك ما كان مما لا يخفى عليك . لا اجهل ان هذا كان من قبيل الاستهواء . ولكني لست بقادر على اجتنابهِ والتخلص منهُ . وهو عقاب عادل استحقهُ جزاء تسرُّعي وقساوتي واقدامي على سفك دم طاهر زكي . ولست بعد الآن بعازم على مقاومتهِ ومحاولة النجاة منهُ . لاني ذاهب اليها وسأبذل جهدي في حملها على الصفح عني . ومن المحقق عندي انها تجيب سؤلي هذا وانها ستحبني كما احبتني في حياتها

« ومن صميم فؤادي اشكر لك أيها الجراحي الفاضل عنايتك بي وعطفك عليَّ »

ترجمة : أسعد خليل داغر